مُرُوجُ الذَّهَبِ

وَمَعَادِنُ الجَوْهَرِ

كِتَابٌ جَمَعَ فِيهِ المَسْعُودِيُّ عُلُومَ الأَوَائِلِ وَمَعَارِفَهُمْ

كِتَابُ «مُرُوجُ الذَّهَبِ وَمَعَادِنُ الجَوْهَرِ» لِعَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ المَسْعُودِيِّ، المُؤَرِّخِ، وَالجُغْرَافِيِّ، وَرَائِدِ نَظَرِيَّةِ الانْجِرَافِ الوِرَاثِيِّ. وَيُعَدُّ المَسْعُودِيُّ مِنْ أَشْهَرِ العُلَمَاءِ العَرَبِ، وَكُنْيَتُهُ أَبُو الحَسَنِ، وَلَقَبُهُ قُطْبُ الدِّينِ، وَهُوَ مِنْ ذُرِّيَّةِ عَبْدِ اللهِ ابْنِ مَسْعُودٍ. وُلِدَ بِبَغْدَادَ وَتَعَلَّمَ بِهَا وَكَانَ كَثِيرَ الأَسْفَارِ، فَزَارَ فَارِسَ وَالهِنْدَ وَسَيَلَانَ وَأَصْقَاعَ بَحْرِ قَزْوِينَ وَالسُّودَانَ وَجَنُوبَ شِبْهِ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ وَبِلَادَ الشَّامِ وَالرُّومِ. وَانْتَهَى بِهِ المَطَافُ إِلَى فُسْطَاطِ مِصْرَ، التِي تُوُفِّيَ بِهَا.

هَذَا كِتَابٌ جَمَعَ فِيهِ مُؤَلِّفُهُ مِنْ عُلُومِ الأَوَائِلِ وَمَعَارِفِهِمْ عُيُونَ المَسَائِلِ وَأُمَّهَاتِهَا، وَلَمْ يُفَصِّلِ القَوْلَ فِيهِ تَفْصِيلًا يُطِيلُ بِهِ عَلَى قَارِئِهِ، وَلَا أَحَاطَ بِأَطْرَافِ مَا تَعَرَّضَ لَهُ مِنَ المَسَائِلِ، مُكْتَفِيًا بِأَنْ يَنْتَقِيَ مِنْ كُلِّ عِقْدٍ دُرَّةً هِيَ أَثْمَنُ دُرَرِهِ وَأَغْلَاهَا عِنْدَهُ، وَأَنْ يَغْتَرِفَ مِنْ كُلِّ غَمْرٍ قَطْرَةً هِيَ أَهْنَأُ قَطَرَاتِهِ وَأَمْرَؤُهَا، وَأَنْ يَقْتَطِفَ مِنْ كُلِّ رَوْضٍ زَهْرَةً هِيَ آرَجُ أَزَاهِيرِهِ وَأَنْضَرُهَا.

وَقَدْ تَعَرَّضَ لِاخْتِلَافِ العُلَمَاءِ فِي أَكْثَرِ مَا بَحَثَ مِنْ مَسَائِلِهِ، وَبَيَّنَ أَقَاوِيلَهُمْ، وَأَشَارَ إِلَى بَعْضِ حُجَجِهِمْ، تَارِكًا تَفْصِيلَ مَا أَخَذَ فِيهِ مِنَ القَوْلِ إِلَى كُتُبِهِ التِي صَنَّفَهَا قَبْلَ هَذَا الكِتَابِ. وَقَدْ أَخَذَ عِلْمَهُ الذِي أَوْدَعَهُ كِتَابَهُ هَذَا وَكُتُبَهُ السَّالِفَةَ عَلَيْهِ مِنْ مَصْدَرَيْنِ: أَوَّلُهُمَا جُمْلَةٌ مِنْ كُتُبِ العُلَمَاءِ الذِينَ سَبَقُوهُ بِالتَّدْوِينِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى أَكْثَرِ هَذِهِ الكُتُبِ فِي مَطْلَعِ هَذَا الكِتَابِ، وَبَيَّنَ مِقْدَارَ أَهَمِّيَّتِهَا فِي نَظَرِهِ. وَالمَصْدَرُ الثَّانِي - وَهُوَ فِي الأَكْثَرِ عِنْدَمَا يُرِيدُ أَنْ يُحَدِّثَكَ عَنْ عَادَاتِ بَعْضِ البُلْدَانِ أَوْ حَاصِلَاتِهَا - أَحَادِيثُ النَّاسِ التِي يَتَنَاقَلُونَهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، فَهُوَ يَقُولُ لَكَ:

«وَقَدْ رَأَيْتُ صَاحِبَ هَذَا الرَّجُلِ المقِيمِ بِالوَاحَاتِ بِبَابِ الإِخْشِيدِ مُحَمَّدِ بْنِ طَغَجَ، وَذَلِكَ سَنَةَ ثَلَاثِينَ وَثَلَاثِمِئَةٍ، وَسَأَلْتُهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ أَخْبَارِ بَلَدِهِمْ، وَمَا احْتَجْتُ أَنْ أَعْلَمَهُ مِنْ خَوَاصِّ أَرْضِهِمْ».

وَصَفَ المَسْعُودِيُّ الزِّلْزَالَ فِي هَذَا الكِتَابِ، كَمَا وَصَفَ فِيهِ البَحْرَ المَيِّتَ وَطَوَاحِينَ الرِّيحِ الأُولَى، وَرُبَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الطَّوَاحِينُ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ الشُّعُوبِ الإِسْلَامِيَّةِ. وَقَدْ أَشَارَ فِي هَذَا الكِتَابِ إِلَى الانْجِرَافِ الوِرَاثِيِّ فِي الحَمْضِيَّاتِ أَثْنَاءَ عَمَلِيَّةِ نَقْلِهَا مِنَ السِّنْدِ إِلَى مِصْرَ، وَسَجَّلَ هَذَا الانْجِرَافَ عَلَى أَصْنَافٍ مِنَ اللَّيْمُونِ.

وَيُعَدُّ المَسْعُودِيُّ مِنْ أَهَمِّ الرَّحَّالَةِ، وَقَدْ قَدَّمَ مَعْلُومَاتٍ أَنْثُرُوبُولُوجِيَّةً قَيِّمَةً عَنْ شُعُوبِ المَنَاطِقِ التِي زَارَهَا، فَذَكَرَ أَجْنَاسَهَا وَصِفَاتِهَا الجِسْمِيَّةَ وَعَادَاتِهَا وَتَقَالِيدَهَا، وَحِرَفَهَا وَمَأْكَلَهَا وَمَلْبَسَهَا، وَمَأْوَى كُلِّ شَعْبٍ مِنَ الشُّعُوبِ. يَقُولُ المَسْعُودِيُّ: «وَقَدْ وَسَمْتُ كِتَابِي هَذَا بِكِتَابِ «مُرُوجُ الذَّهَبِ وَمَعَادِنُ الجَوْهَرِ» لِنَفَاسَةِ مَا حَوَاهُ، وَجَعَلْتُهُ تُحْفَةً لِلْأَشْرَافِ مِنَ المُلُوكِ وَأَهْلِ الدِّرَايَاتِ لِمَا قَدْ ضَمَّنْتُهُ مِنْ جُمَلِ مَا تَدْعُو الحَاجَةُ إِلَيْهِ، وَتُنَازِعُ النُّفُوسُ إِلَى عِلْمِهِ، وَلَمْ نَتْرُكْ نَوْعًا مِنَ العُلُومِ وَلَا فَنًّا مِنَ الأَخْبَارِ إِلَّا أَوْرَدْنَاهُ فِي هَذَا الكِتَابِ مُفَصَّلًا، أَوْ ذَكَرْنَاهُ مُجْمَلًا. فَمَنْ حَرَّفَ شَيْئًا مِنْ مَعْنَاهُ، أَوْ أَزَالَ رُكْنًا مِنْ مَبْنَاهُ، أَوْ طَمَسَ وَاضِحَةً مِنْ مَعَالِمِهِ، أَوْ لَبَّسَ شَاهِدَةً مِنْ تَرَاجِمِهِ، أَوْ غَيَّرَهُ، أَوْ بَدَّلَهُ، أَوْ انْتَخَبَهُ، أَوِ اخْتَصَرَهُ، أَوْ نَسَبَهُ إِلَى غَيْرِنَا، أَوْ أَضَافَهُ إِلَى سِوَانَا، فَوَافَاهُ مِنْ غَضَبِ اللهِ وَسُرْعَةِ نِقَمِهِ وَفَوَادِحِ بَلَايَاهُ مَا يَعْجَزُ عَنْهُ صَبْرُهُ، وَيَحَارُ لَهُ فِكْرُهُ، وَجَعَلَهُ مُثْلَةً لِلْعَالَمِينَ، وَعِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ، وَآيَةً لِلْمُتَوَسِّمِينَ، وَسَلَبَهُ اللهُ تَعَالَى مَا أَعْطَاهُ، وَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ قُوَّةٍ وَنِعْمَةٍ مُبْدِعِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، مِنْ أَيِّ المَلَلِ كَانَ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَقَدْ جَعَلْتُ هَذَا التَّخْوِيفَ فِي أَوَّلِ كِتَابِي هَذَا وَآخِرِهِ؛ لِيَكُونَ رَادِعًا لِمَنْ مَيَّلَهُ هَوًى، أَوْ غَلَبَهُ شَقَاءٌ، فَلْيُرَاقِبِ اللهَ رَبَّهُ، وَلْيُحَاذِرْ سُوءَ مُنْقَلَبِهِ، فَالمُدَّةُ يَسِيرَةٌ، وَالمَسَافَةُ قَصِيرَةٌ، وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ».